الباب الأول

معنى الأخلاق وأنواعها والحاجة إليها

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
معنى الأخلاق

معنى الأخلاق اصطلاحًا: الأخلاق جمع خُلُق والخلق هو السجية التى يُولد الإنسان بها أو يتسم بها بلا تكلُّف، والخُلُق بضم اللام وسكونها: الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه ووصافها ومعانيها المختصة بها وتتعلق بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما تتعلق بأوصاف الصورة الظاهرة، وديننا الكريم يدعونا إلى التحلى بحسن الخلق وينهانا عن أن نتصف بالذميم من الخلق، يقول رسول الله ﷺ: «ليس شيئ فى الميزان أثقل من حسن الخلق»، ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق» وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقوله: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

وإذا كان الخلق هو الطبع الداخلى أو الصورة الباطنة للإنسان فإن الخلق إما أن يكون فطريًا يُولد الإنسان مزوداً به وإما أن يكون خلقًا مكتسبًا يُربى فى النفس وينمو معها، وفيما يلى نوجز الفرق بين الخلق الفطرى والخلق المكتسب:

أولاً الخلق الفطرى أو الطبيعى: هو الذى يُولد الإنسان فيرثه بالفطرة الغريزية السمحة التى فطر الله الناس عليها ومن هذه الأخلاق الفطرية أو الطبيعية خلق الخيرية أو حب الإنسان للخير فإن الحق تبارك وتعالى يخلق عباده على الفطرة ثم يقوم أبواه ومجتمعه والبيئة المحيطة به بتشكيله فيما بعد، جاء فى صحيح البخارى: أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]»، ويرحم الله من قال:

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ فينا ... على ما كان عوَّدهُ أبوهُ

فإذا عوَّده أبوه أو رباه على مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال نشأ نشأة طيبة مباركة فكان له الخير فى الدنيا وكان له خير الجزاء فى الآخرة وكذلك الخير لمن أنشأه على تلك الأخلاق النبيلة والأفعال الحسنة.

ثانيًا الخلق المكتسب: وهو الذى يكون ناشئًا فى النفس البشرية بالتعلم أو التعود ويتدخل فيه دور التربية والبيئة المحيطة والرفقاء.

والأخلاق أو السجايا نوعان:

أما أولهما فهو الخلق الحسن: وهو ما وجَّه الإسلام أصحابه أن يتحلوا به وأن يتصفوا بصفاته ومنها الحلم والصبر والصدق والقناعة وقول الصدق وبر الوالدين ولين الجانب والعطف على الفقراء والمحتاجين والمساكين وصلة الأرحام والعطف على الأيتام وفعل الخيرات ورَدُّ الأمانات وما نحو ذلك الكثير والكثير من مكارم الأخلاق.

وأما النوع الآخر فهو الخلق السىء المذموم والعياذ بالله: وهو المنهى عنه فى الإسلام ومن الأخلاق السيئة المذمومة الكذب والنفاق والخداع والخيانة والغش والتدليس والظلم والبهتان والذم والطمع وغلظة القلب وترويع الآمنين وعقوق الوالدين وما نحو ذلك الكثير والكثير.

فعلى المسلم الذى حسن إسلامه أن يباعد بين نفسه وبين تلك الأخلاق الذميمة وأن يتحلى بالأخلاق الحسنة الكريمة أسوة برسول الله ﷺ المثل الأعلى فى التحلى بمكارم الأخلاق فهو الذى بعثه ربه ليتمم مكارم الأخلاق.

معنى الأخلاق لغةً:

جاء فى مختار الصحاح باب (خ ل ق): الخلق التقدير يُقال خلق الأديم إذا قدره قبل القطع وبابه نصر. والخليقة: الطبيعة والجمع الخلائق والخليقة أيضًا الخلائق يقال هم خليقة الله وهم خلق الله وهو فى الأصل مصدر والخلقة: الفطرة، وفلان خليق بكذا أى جدير به، ومضغة مخلقة: تامة الخلق، وخَلَقَ الإفك: من باب نصر واختلقه

وتخلقه: افتراه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. والخُلق بسكون اللام وضمها: السجية، وفلان يتخلق بغير خلقه: أى يتكلفه، والخلاق: النصيب ومنه قوله تعالى: ﴿لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. وملحفة خلق وثوب خلق أى بالٍ يستوى فيه المذكر والمؤنث لأنه فى الأصل مصدر الأخلق وهو الأملس والجمع خلقان، وخلَقَ الثوب: بلى وبابه سهل، وأخلق: أيضًا مثله، وأخلقه صاحبه: يتعدى ويلزم، والخلوق بالفتح: ضرب من الطيب، وخلقه تخليقًا: طلاه به فتخلق.

وجاء فى النهاية باب (خلق): فى أسماء الله تعالى الخالق وهو الذى أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة وأصل الخلق التقدير فهو باعتبار تقدير ما منه وجودها وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير خالق. وفى حديث الخوارج «هم شر الخلق والخليقة»: الخلق: الناس، والخليقة: البهائم، وقيل هما بمعنى واحد ويريد بهما جميع الخلائق. وفيه «ليس شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق» بضم اللام وسكونها: الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه ووصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث فى مدح حسن الخلق فى غير موضع كقوله ﷺ: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»، وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقوله: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، وقوله: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، والأحاديث من هذا النوع كثيرة. وكذلك جاء فى ذم سوء الخلق أحاديث كثيرة. فى حديث عائشة «كان خلقه القرآن»: أى أنه كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف، وفى حديث عمر: «من تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله»: أى تكلف أن يظهر من يخلقه خلاف ما ينطوى عليه مثل: تصنَّعَ وتجمَّلَ: إذا أظهر الصنيع والجميل. وفيه (ليس لهم فى الآخرة من خلاق) الخَلاق بالفتح: الحظ والنصيب. ومنه حديث أبى (وأما طعام لم يصنع إلا لك فإنك إن أكلته إنما تأكل منه بخلاقك): أى بحظك ونصيبك من الدين قال له ذلك

فى طعام من أقرأه القرآن وقد تكرر ذكره فى الحديث. وفى حديث أبى طالب (إن هذا إلا اختلاق) أى: كذب وهو افتعال من الخلق الإبداع كأن الكاذب يخلق قوله.

وجاء فى لسان العرب باب (خَلَقَ): الخليقة: الطبيعة التى يتخلق بها الإنسان. وحكى اللحيانى: هذه خليقته التى خلق عليها وخلقها والتى خلق: أراد التى خلق صاحبها والجمع الخلائق. قال لبيد:

فاقنعْ بما قسَمَ المليكُ فإنما ... قسَمَ الخلائقَ بيننا علامُها

والخلقة: الفطرة، أبو زيد: إنه لكريم الطبيعة والخليقة والسليقة بمعنى واحد. والخليق: كالخليقة عن اللحيانى قال: وقال القنانى فى الكسائى:

وما لى صديقٌ ناصحٌ أغتدى له ... ببغداد إلا أنتَ برٌّ موافقُ

يزين الكسائىُ الأغرُ خليقَه ... إذا فضحتْ بعضَ الرجالِ الخلائقُ

وقد يجوز أن يكون خليق جمع خليقة كشعير وشعيرة قال: وهو السابق إلىَّ. والخُلُق: الخليقة أعنى الطبيعة. وفى التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والجمع أخلاق لا يكسر على غير ذلك. والخلق والخلق: السجية يُقال خالص المؤمن وخالق الفاجر. وفى الحديث: «ليس شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق» الخُلُق بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق فى غير موضع كقوله: «من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق» وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقوله: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، وقوله: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكذلك جاءت فى ذم سوء الخلق أيضًا أحاديث كثيرة وفى حديث عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن، أى كان متمسكًا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. وفى حديث عمر: من تخلق للناس بما يعلم الله

أنه ليس من نفسه شانه الله، أى تكلف أن يظهر من خلقه خلاف ما ينطوى عليه مثل تصنع وتجمل إذا أظهر الصنيع والجميل. وتخلق بخلق كذا: استعمله من غير أن يكون مخلوقًا فى فطرته. وقوله: تخلق مثل تجمل أى أظهر جمالاً وتصنع وتحسن إنما تأويله الإظهار، وفلان يتخلق بغير خلقه أى يتكلفه، قال سالم بن وابصة:

يـا أيهـا المتحـلى غيـرَ شيمتِـه ... إن التخلـقَ يأتى دونـه الخلـقُ

أراد بغير شيمته فحذف وأوصل. وخالق الناس: عاشرهم على أخلاقهم. قال: خالق الناس بخلق حسن. ويقال أخلق الرجل: إذا صار ذا أخلاق، قال ابن هرمة:

عجبـتْ أثيـلةُ أن رأتنـى مخلـقًا ... ثكلتـك أمـك أى ذاك يروعُ

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه ... خلـقٌ وجيبُ قميصِه مرقـوعُ

• • •

• • •

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى
أنـواع الأخـلاق

ذكرنا فى الفصل السابق أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين: أخلاق حميدة وأخلاق ذميمة وفيما يلى نوجز هذين النوعين من الأخلاق:

(أ) الأخلاق الحميدة: وهى المنشودة والمطلوبة.

(ب) الأخلاق الذميمة: وهى المذمومة المنهى عنها.

(أ) أما الأخلاق الحميدة فهى التى حضنا عليها ديننا الحنيف وأمرنا أن نتحلى بها ففيها سعادة الفرد فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وفيها سعادة المجتمع بأسره ومن هذه الأخلاق الحميدة:

١- الحلم
٢- دفع السيئة بالحسنة
٣- فعل الخير
٤- المسارعة فى فعل الخير
٥- الحكمة
٦- الإصلاح بين الناس
٧- الصدق
٨- قول التى هى أحسن
٩- البشاشة والوداعة
١٠- الاستقامة
١١- سلامة القلب
١٢- العفو عن الناس
١٣- الصفح
١٤- روح السلام
١٥- الرحمة
١٦- المودة
١٧- التعاون
١٨- الإخاء
١٩- الإحسان
٢٠- الإيثار
٢١- القِرى (إكرام الضيف)
٢٢- العفة

obeikandl.com

٢٣- غض البصر
٢٤- الإعراض عن اللغو
٢٥- القصد فى المشى وخفض الصوت
٢٦- السكينة
٢٧- الاعتدال فى الأمور
٢٨- شكر النعمة
٢٩- الصبر
٣٠- كظم الغيظ
٣١- الإقساط
٣٢- التواضع
٣٣- الوفاء بالعهد
٣٤- النظافة
٣٥- الحياء

(ب) أما الأخلاق الذميمة فهى التى حذرنا منها ديننا الحنيف وأمرنا أن ننأى بأنفسنا عنها ففيها شقاء الفرد فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وفيها تعاسة المجتمع بأسره ومن هذه الأخلاق الذميمة:

١- الظلم
٢- الرأى الفطير
٣- الفضول
٤- الخبث
٥- الاختيال والعُجْب
٦- التكبر
٧- الغرور
٨- المخاصمة والمنازعة
٩- الفعل المخالف للقول
١٠- الجهر بالسيئ من القول
١١- اتباع الشهوات
١٢- الكذب
١٣- سوء الظن
١٤- التجسس
١٥- استراق السمع
١٦- الغيبة
١٧- النميمة
١٨- البهتان
١٩- الهمز
٢٠- اللمز
٢١- التشييع للأخبار الكاذبة
٢٢- لغو القول

٢٣- اللهو واللعب
٢٤- السخرية
٢٥- التنابز بالألقاب
٢٦- الافتراء على الله ورسوله
٢٧- الجهر بالسوء
٢٨- الغضب
٢٩- الأسى على ما فات
٣٠- الغيرة
٣١- الجبن
٣٢- البخل
٣٣- المن والأذى فى الصدقات
٣٤- الطمع
٣٥- الأثرة
٣٦- الإسراف
٣٧- التبذير
٣٨- إطاعة المسرفين
٣٩- البطر
٤٠- الاستكبار
٤١- البغى
٤٢- الفساد
٤٣- الإفساد
٤٤- شهادة الزور
٤٥- الخيانة
٤٦- نقض العهد
٤٧- الفضيحة
٤٨- الغش
٤٩- المكر
٥٠- الرياء
٥١- الغل
٥٢- الحسد
٥٣- منع الخير
٥٤- البغض
٥٥- الغفلة
٥٦- القساوة
٥٧- الفجور
٥٨- الفسق
٥٩- المسافحة
٦٠- الكفران
٦١- الفواحش
٦٢- العهارة
٦٣- البغاء
٦٤- السكر
٦٥- الربا
٦٦- السرقة

obeikandl.com

هذا وفى الباب الثالث من هذا الكتاب دراسة تفصيلية لبعض الأخلاق الإسلامية الحميدة كما جاء فى القرآن والسنة.

فيما يلى نضرب مثلاً للأخلاق الحميدة بخلق الصبر كما نضرب مثلاً للأخلاق الذميمة بخلق الظلم:

من أمثلة الأخلاق الحسنة الكريمة خلق الصبر:

الصبـــر

الصبر هو الصيام والإمساك وهو الاحتساب والتجلد وحبسُ النفس عن الجَزَع والكف عن المعاصى، عن النبى ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر» وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى وتتضح هذه المعانى فى الآية الكريمة الواردة فى (سورة البقرة) وفى غيرها حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، حول معنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير: يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام نص عليه مجاهد، قال القرطبى وغيره: ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن جرى بن كليب عن رجل من بنى سليم عن النبى ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر»، وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة. قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى سنان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله. قال: وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر. وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ قال: استعينوا على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله وأما قوله: ﴿وَالصَّلاةِ﴾ إن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر.

الصَّبْرُ خُلُقُ أولى العزمِ من الرسل

نعم الصبر خلقٌ كريم من أخلاق الإسلام وهو خلق أولى العزم من الرسل، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، الله عز وجل يأمر رسوله الكريم بأن يصبر على أذى الكفار، أى صبر؟ إنه صبر أولى العزم من الرسل ومن هم أولو العزم من الرسل؟ إنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم وهم أصحاب الشرائع. لقد صبر نوح على أذى قومه كما صبر إبراهيم على النار وصبر موسى عليه السلام على عنت وشرك وكفر فرعون كما صبر على إيذاءات بنى إسرائيل له وعبادتهم العجل، وكذلك صبر نبى الله عيسى على عناد قومه وصلف اليهود وإيذائهم له، أما النبى محمد ﷺ فقد صبر على أذى الكفار والمشركين ومطاردتهم له إلى أن أتم الله نوره، وغير أولى العزم من الرسل صبر إسحاق عليه السلام على الذبح، كما صبر يعقوب عليه السلام على فَقْد الولد وذهاب البَصر، أما يوسف عليه السلام فقد صبر على ظلمات البئر وعلى السجن كما صبر على اتهام تلك المرأة له بمراودتها عن نفسها، ويأتى أيوب عليه السلام على رأس هؤلاء جميعًا فى الصبر فلقد صبر على الضر حين أصيب فى بدنه وحين أصيب فى أهله فكشف الله عما به من ضُرٍّ وعوَّضه الله تعالى بأن أعاد له أهله ومثلهم معهم.

الحق تبارك وتعالى يقول مخاطبًا نبيه ورسوله وحبيبه محمداً ﷺ مؤيداً له ومشجعًا له على الصبر على أذى المشركين والكفار واليهود: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة: قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى على تكذيب قومهم لهم.

وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ قد نص الله تعالى على أسمائهم من

بين الأنبياء فى آيتين من سورتى الأحزاب والشورى وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل فتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم محمد بن الحجاج الحضرمى: حدثنا السرى بن حيان حدثنا عباد بن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبى عن مسروق قال: قالت عائشة رضى الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه ثم ظل صائمًا ثم طواه ثم ظل صائمًا ثم قال: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله». ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ﴿الأحقاف: ٣٥﴾، كقوله جل وعلا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].. الآية. وقوله جل وعلا: ﴿بَلاغٌ﴾ ، قال ابن جرير يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون تقديره وذلك لبث بلاغ، والآخر أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ. وقوله تعالى أى لا يهلك على الله إلا هالك. وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب والله أعلم.

ومن أمثلة الأخلاق الذميمة السيئة خلق الظلم:

الظلـــم

والظلم هو ضد العدل ولقد أمر الله عز وجل الإنسان أن يكون عادلاً في كل ما يقول وأن يكون عادلاً فى كل ما يفعل. كما نهى الحق سبحانه وتعالى الناس عن أن يكونوا ظالمين فلا يجب على الإنسان أن يظلم نفسه كما يجب عليه ألا يظلم غيره من البشر أو من المخلوقات الأخرى. فما المقصود إذن بالظلم، ذلك الخلق الذميم المنهى عنه فى الكتاب والسنة؟

جاء فى تعريف لفظة (ظلم) فى مختار الصحاح ج١: (ظ ل م): ظلمه يظلمه بالكسر ظلمًا ومظلمة أيضًا بكسر اللام. وأصل الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ويقال من شابه أباه فما ظلم، وفى المثل من استرعى الذئب فقد ظلم والظلامة والظليمة والمظلمة بفتح اللام: ما تطلبه عند الظالم وهو اسم ما أخذه منك وتظلمه أى ظلمه ماله. وتظلم منه: أى اشتكى ظلمه. وتظالم القوم وظلمه تظليمًا نسبة إلى الظلم. وتظلم وانظلم: احتمل الظلم والظِّلِّيم بوزن السِّكِّيت: الكثير الظلم. والظلمة ضد النور وضم اللام لغة وجمع الظلمة ظُلَم وظُلُمات وظُلَمات وظُلْمات بضم اللام وفتحها وسكونها. وقد أظلم الليل وقالوا: ما أظلمه وما أضوأه وهو شاذ. والظلام: أول الليل. والظلماء: الظلمة وربما وصف بها يقال ليلة ظلماء أى مظلمة. وظلم الليل بالكسر ظلامًا: بمعنى أظلم. وأظلم القوم دخلوا فى الظلام. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

الظُّلْم خُلُق بغيض يودى بصاحبه إلى المهالك

الحق تبارك وتعالى يأمر عباده المؤمنين ألا يظلموا اليتامى وألا يأكلوا أموالهم ظلمًا فإن فعلوا ذلك فقد ارتكبوا ظلمًا وبهتانًا عظيمًا لا يكون عقابه إلا النار والعياذ بالله، يقول تعالى فى سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وحول تفسير هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: ولهذا قال إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ويصلون سعيراً أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج فى بطونهم يوم القيامة. وفى الصحيحين من حديث سليمان ابن بلال عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يا رسول الله ما رأيت ليلة أسرى بك؟ قال: «انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير: رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم ثم يجاء

بصخرة من نار فتقذف فى أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم جؤار وصراخ قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرا »، وقال السدى: يُبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم. وقال ابن مردويه: عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال: «يُبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم نارًا» قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية رواه ابن أبى حاتم عن أبى زرعة عن عقبة بن مكرم وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أحمد بن على بن المثنى عن عقبة بن مكرم. قال ابن مردويه: عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحرج مال الضعيفين المرأة واليتيم» أى أوصيكم باجتناب مالهما وتقدم فى سورة البقرة من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية. انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشىء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية.[البقرة: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

ويقول تعالى فى المنافقين الكافرين الذين كذبوا الرسل فظلموا أنفسهم بكفرهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، يقول ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة: يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل "قوم نوح" وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، "وعاد" كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، "وثمود" كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة، "وقوم إبراهيم" كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات

الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله، "وأصحاب مدين" وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة، "والمؤتفكات" قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم وهى سدوم والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطًا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أى بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

• • •
• • •

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

حاجة الفرد والمجتمع إلى الأخلاق

نعم إن الأخلاق الحميدة ضرورة فى حياة الأفراد وهى أكثر ضرورة فى حياة المجتمعات لأن المجتمع الذى يتحلى أبناؤه بتلك الأخلاق الحميدة لا بد أن يكون مجتمعًا سليمًا صحيحًا، مجتمعًا صحيًا تكون لبنته الأساسية الإنسان الخلوق فتسير حياة المجتمع بأسره إلى الأفضل ليكون مجتمعًا مثاليًا. إن نظرة إلى ما يحدث اليوم فى دول الغرب ليثبت صحة هذا الرأى فالفرد فى الغرب أصبح يشعر باغتراب نفسى شديد فى مجتمعه الذى أصبح يغرق فى عالم الماديات دون التقيد بالوازع الأخلاقى ودون التقيد بالوازع الدينى. لقد طغت المادة على كل شىء فى الغرب بل وأصبحت المادة هى كل شىء عندهم والأكثر من ذلك والأغرب أن تظهر هناك نظريات فلسفية تؤكد هذه الآراء المغلوطة.

لقد تبين أن من بين أسباب ما تعانيه المجتمعات الغربية من أمراض وأوجاع وآلام وأسقام ما جلبته المدنية الحديثة من أسباب لتلك الأوجاع وتلك المتاعب والأمراض دون أن تتسلح تلك المجتمعات بالأخلاق الحميدة ودون أن تسلح تلك المجتمعات أفرادها بالوازع الدينى. لقد توقفت كثيراً أمام صحة هذا الرأى وأنا أدرس الأدب الإنجليزى فى القرن العشرين لطالبات السنة الرابعة بكلية التربية وبالتحديد عندما كنت أشرح لهن الخلفية الفكرية والثقافية فى أوروبا وأمريكا فى النصف الأول من القرن العشرين. لقد رأيت أنه مع بداية القرن العشرين سادت فى الدول الغربية النظرة المادية للأشياء وسيطرت هذه النظره المادية على كل شىء وأكثر من هذا ساد ما يُعرف بنظريات الشكِّية Skepticism (التشكيك فى الدين) واللاأدرية Agnosticism وهو المذهب المنادى بالقول بأنه لا يمكن معرفة شىء عن الله أو وجوده - تعالى الله عما يصفون - وأن الظاهرة المادية فقط هى كل ما يمكن إثباته.

جاءت هذه النظريات نتيجة لآراء الفيلسوف البريطانى ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) والفيلسوف الألمانى إيمانويل كانْت Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وهى كلها فلسفات هدامة ومغلوطة ومضللة قريبة من الفكر والإلحاد Atheism وداعية إليه والعياذ بالله، ولقد أدى ذلك الخواء الروحى والشك العقدى والتقدم الهائل فى العلم وظهور نظريات فلسفية أخرى عديدة ومنها نظريات داروين فى التطور Darwin's Theory of Evolution ونظريات فرويد Freud ويونج Jung فى علم النفس Psychology ونظريات كارل ماركس Karl Marx وفريدريك إنجلز Friedrich Engels فى الشيوعية Communism. كما أدى نشوب الحرب العالمية الأولى من شهر أغسطس ١٩١٤ إلى نوفمبر ١٩١٨ والتساؤل عن أسبابها ومدى جدواها والخسائر البشرية الباهظة التى سببتها (أكثر من عشرة ملايين قتيل وعشرين مليون جريح من إجمالى خمسة وستين مليونًا شاركوا فى الحرب) كل ذلك أدَّى إلى حالة من فقدان الثقة والإحباط وخيبة الأمل والشعور بالزيف Illeusionment وضياع القيم وانعدام المُثُل وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى التخبط العقدى وإلى الخوف من كل شىء وإلى إلقاء ظلال الشك حول الثوابت من معتقداتهم، مما دفع الكثير منهم إلى الإصابة بالإحباط واليأس والاكتئاب Depression وإلى الجنون أو الانتحار.

كان من بين أمثلة العديد ممن أقدموا على الانتحار الكاتبة البريطانية الشهيرة فيرجينيا وولف Virginia Woolf (١٨٨٢ - ١٩٤١) مؤلفة رواية (إلى الفنارة) To the Lighthouse ورواية (مسز دالواى) Mrs. Dalloway ورواية (الأمواج) The Waves والتى كانت أصيبت بعلّة عقلية مزمنة فكانت أن أقدمت على الانتحار بأن أغرقت نفسها فى نهر أوس River Ouse القريب من منزلها بعد أن تركت لزوجها رسالة تقول فيها إنها خشيت هذه المرة من نوبة الجنون القادمة التى قد لا تفارقها.

أما الكاتب الأمريكى إرنست هيمنجواى Ernest Hemingway (١٨٩٩ -

١٩٦١) الذى ضربت شهرته الآفاق مؤلف رواية (العجوز والبحر) The Old Man and the Sea ورواية (وداعًا للسلاح) Farewell to Arms ورواية (لمن يدق الناقوس) For Whom the Bell Tolls? ورواية (الشمس تشرق أيضًا) The Sun Also Rises والحاصل على العديد من الجوائز ومنها جائزة بوليتزر Pultzer Prize عن روايته (العجوز والبحر) عام ١٩٥٣ وجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٤ فقد أقدم هو أيضًا على الانتحار بأن أطلق النار من مسدسه إلى رأسه فى منزله فى كيتشم. إيداهو بأمريكا فى شهر يوليه عام ١٩٦٢ بعد أن خشى من فقدان الأمان فى شيخوخته بعد أن أصيب هو أيضًا بتلك الحالة من الاكتئاب، وغير فيرجينيا وولف وإرنست هيمنجواى الكثيرون الذين لاقوا نفس المصير بسبب النظرة المادية البحتة للأشياء وبسبب نقص الوازع الدينى والخواء الأخلاقى فى مجتمعاتهم.

إن ضيق الصدر مرده إلى استعجال النتائج ومرده كذلك إلى ما أصاب الإنسان من داء العجلة الذى جلبته المدنية الحديثة بوقعها السريع منذ أن اخترع الإنسان الآلة فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ومنذ أن اخترع البرق والهاتف ووسائل الاتصالات ووسائل المواصلات، فلقد قفز الإنسان فى العصر الحديث فجأة من سرعة الدرَّاجة والعربة التى تجرها الجياد إلى سرعة القطار ثم السيارة ومنها مباشرة إلى سرعة الطائرات الأسرع من الصوت كطائرة الكونكورد Concord aircraft تلك الطائرة العملاقة التى تبلغ سرعتها ضعف سرعة الصوت أى أنها تطير أسرع من الصوت بمقدار الضعف وهذه السرعة هى المعروفة باسم (الماخ) Mach، ثم إلى سرعة الصواريخ العابرة للقارات ثم إلى سفن الفضاء. ونتيجة للقفزات التكنولوجية السريعة والهائلة اخترع الإنسان شبكة المعلومات (الإنترنت) Internet فأصبح بإمكانه أن يتصل أو يتراسل أو يتحادث أو يعقد صفقات لتوِّه بأى شخص فى أى بقعة من بقاع العالم، ثم اخترع الهاتف الجوَّال The mobile telephone ثم أن توصل العالم المصرى الدكتور أحمد زويل إلى أصغر وحدة زمنية يتوصل إليها الإنسان وهى المعروفة بالـ (فيمتو) ثانية Vimto second وهى الجزء على ألف أو آلاف الوحدات من الثانية وهى أصغر أو أدق وحدة لقياس الزمن.

مع كل قفزة من هذه القفزات التكنولوجية الهائلة حاول الإنسان أن يسابق الزمن فى سرعته اللانهائية وأن يكون هو أيضًا أسرع من تلك الوسائل التى هى بدورها أسرع من الصوت بعدة مرات، فازدادت ضربات قلب المرء وازداد فى غدده إفراز مادة الأدرينالين Adrenalin التى تفرزها الغدة الكظرية وهذا بدوره يرفع ضغط دمه فيصيب قلبه بداء ارتفاع ضغط الدم الذى يؤدى بدوره إلى تضخم Enlargement الأوردة Veins والشرايين Arteries وتضخم بطين Ventricle القلب وأذينه Atrium كما يؤدى إلى السكتة القلبية Heart failure or attack والسكتة الدماغية Cerebral apoplexy or stroke الناتجة عن النزيف الداخلى بالمخ Cerebral hemorrhage الناتج بدوره عن ارتفاع ضغط الدم High blood pressure or Hypertension، كما يؤدى ذلك إلى قائمة لا نهاية لها من الأمراض النفسية Psychological diseases والأمراض العصبية Nervous diseases والاضطرابات Anxieties or disorders والتشنجات Convulsions والضغوط العصبية Stresses التى قد تقرِّب المرء من حافة الانهيار العصبى Nervous breakdown أو حتى الانتحار Suicide أو الجنون Madness والعياذ بالله.

أصبح الأفراد فى تلك المجتمعات الغربية يتسابقون وبنفس السرعة التى تتسابق بها وسائل الاتصالات الحديثة ووسائل المواصلات الأسرع من الصوت فأصبح الواحد منهم ينظر إلى ما فى يد غيره فيريد أن يقتنى مثله أو أفضل منه بغض النظر عن الوسيلة وبلا وازع أخلاقى، فأصيبت قلوبهم بكل هذه الأمراض... يا إلهى.. قائمة مطوَّلة من الأمراض وسلسلة لا نهاية لها من سلاسل الداء جلبتها لهم المدنية الحديثة دون أن يتسلح أفراد تلك المجتمعات بالسلاح الربانى الذى وهبه رب العزة جل وعلا ألا وهو سلاح الإيمان وسلاح اليقين بالله وسلاح التحلى بمكارم الأخلاق وسلاح الصبر، وهى أسلحة إذا ما تسلح بها الإنسان كانت كافية لأن تقيه كل تلك الشرور وكل تلك الأمراض والأسقام والأوجاع ومثلها معها.

إن نظرة واحدة على ما يحدث فى الغرب اليوم ليؤكد صدق ما نقول كما يؤكد صحة ذلك الدواء الربَّانى وقوة علاجه الناجع وقوة فاعليته وشفائه وأدائه بإذن الله.

الغرب بما توصل إليه من تلك القفزات العلمية المذهلة لم يكن أفراده مسلحين بتلك الأسلحة الربانية المجانية؛ أسلحة الإيمان بالله وكتبه ورسله واليقين بالله والصبر على الشدائد فكانت النتيجة التى نسمع عنها ونراها فى وسائل إعلامهم بين حين وآخر: أكبر قدر من الأمراض النفسية والعصبية وأكبر قدر من الأمراض العضوية وأكبر قدر من الخواء الروحى والأخلاقى وأكبر قدر من الشك فى كل شىء ومن الخوف من كل شىء وأكبر نسبة من الانتحار فى العالم وأكبر نسبة من مرضى الجنون، لماذا كل هذا؟ لأن الفرد هناك لم يساير سرعة تقدمه بقوة إيمانه - هذا إذا كان لديه إيمانٌ أساسًا - كما أنه لم يسلِّح نفسه بأسلحة الوقاية الربانية التى تقيه مما يعرف ومما لا يعرف من تلك الأمراض والأوجاع. كان المرء فى الماضى لا يستغرب ولا يستعجب إقدام المنتحر على الانتحار لشدة فقره أو لقلة حيلته أو لعجزه عن سداد ديونه مع استنكارنا لهذه الجريمة الشنعاء، ولكن أن يقدم الغربيون الذين توفرت لديهم الأمور المادية والكماليات المعيشية بدرجة فيها الترف وفيها كثرة السرف فهذا ما فيه العجب الحقيقى.

وأما العلاج أخى المسلم فهو أقرب إلينا من حبل الوريد إنه فى كلمات الله البينات التى نزَّلها على قلب رسوله الكريم لتكون لقلوبنا شفاءً من كل داء ولتكون لنفوسنا دواءً من كل ابتلاء، الحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه المبين فى سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى يذهب ما فى القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفى من ذلك كله وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بُعداً وكفراً والآفة من الكافر لا من القرآن كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، والآيات فى ذلك كثيرة، قال قتادة فى قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أى لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

كما يقول سبحانه وتعالى فى سورة يونُس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى زاجر من الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى؛ وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]،، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ الآية. [فصلت: ٤٤].

• • •

• • •

الفصل الرابع

علاقة الخلق بالسلوك

تعريف السلوك: جاء فى لسان العرب: (سلك): السلوك مصدر سلك طريقًا: سلك المكان يسلكه سلكًا وسلوكًا سلكه غيره وفيه: وأسلكه إياه وفيه، ويقال: سلكتُ الخيط فى المخيط أى أدخلته فيه. أبو عبيد عن أصحابه: سلكته فى المكان وأسلكته بمعنى واحد. ابن الأعرابى: سلكت الطريق وسلكته غيرى قال ويجوز أسلكته غيرى. وسلك يده فى الجيب والسقاء ونحوهما يسلكها وأسلكها: أدخلها فيهما. والسِّلْكة الخيط الذى يخاط به الثوب وجمعه سِلْك وأسلاك سُلُوك. والمسلك: الطريق. والسلك: إدخال شىء تسلكه فيه كما تطعن الطاعن فتَسْلُك الرمح فيه إذا طعنته تلقاء وجهه على سجيته.

على هذا الأساس يكون سلوك الإنسان هو الفعل الإرادى الذى يفعله أو يسلكه بإرادته الحرة أى هو الفعل الإرادى للإنسان على خلاف الخلق الذى هو صفة باطنة داخلية أو سجية من سجاياه الباطنة، وبهذا يكون سلوك الإنسان هو ما يدل من فعل أو تصرف على سجاياه الباطنة فإن الكريم الذى فُطر على الكرم والذى رباه أهله أيضًا على هذا الخلق النبيل نجد أن سلوكه وتصرفه الخارجى يسعيان إلى الكرم ويحتمان عليه ألا يسعى إلا إلى الخير وفى بذل الجود والعون وإلى السخاء لمن احتاج إلى ذلك حتى ولو كان به خصاصة.

وعلى خلاف ذلك نجد أن الإنسان المجبول على الشح والبخل فإن سلوكه وتصرفه الخارجى لا يكونان إلا فى اكتناز المال والبخل والشح على نفسه وعلى أهل بيته وعلى المحيطين به فلا تطيعه يده البخيلة الشحيحة على البذل أبداً. وعلى هذا الأساس فإن سلوك الإنسان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأخلاقه فصاحب الخلق الكريم الرفيع لا يكون سلوكه إلا كريمًا رفيعًا كخلقه الكريم الرفيع، وصاحب الخلق السيئ والعياذ بالله لا يكون سلوكه إلا سيئًا مثل خلقه فكيف يكون صاحب الخلق الدنىء

كريمًا ؟! هذا لا يجوز لأن العرف والمنطق قد سارا على أن فاقد الشيء لا يعطيه. إن صاحب الخلق القويم الذى يتحلى بأخلاق الإسلام تمنعه تلك الأخلاق النبيلة والخصال الأصيلة من أن يتدنى إلى فعل ما هو دنيء من الأفعال، وكذلك صاحب الخلق السيء لا يستطيع أن يقدِّم سلوكًا نبيلاً لأن أخلاقه الدنيئة كانت قد عودته على الفعال الدنيئة فجبلت نفسه على تلك الفعال، وأما الكريم ذو الخلق الكريم فإنه إن حاول الشيطان أن يحرضه على اقتراف ما يشين سلوكه من الفعال نجد أن نفسه الكريمة وخصاله الطيبة غالبًا ما تقف حائلاً دون اقتراف تلك النواقص من الفعال.

إن عباد الرحمن الذين تحلَّوا بالأخلاق القويمة والصفات الكريمة لا تكون فعالهم إلا قويمة كريمة مثل أخلاقهم فهم الذين يمشون على الأرض هونًا وهم الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا وهم الذين يبيتون لربهم سجداً وقياما وهم الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وهم الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون وهم الذين لا يشهدون الزُّور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، صفات كثيرة من الصفات الحميدة وأخلاق عديدة من الأخلاق النبيلة التى يتحلَّى بها عباد الرحمن هى صفات وأوصاف من التحلى والتخلى؛ وهى إحدى عشرة صفة نبيلة اشتملت عليها الآيات البينات التالية من سورة الفرقان والكثير والكثير من آى الذكر الحكيم.

فى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ

أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٥]، يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات البينات: هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ الآية.[الإسراء: ٣٧]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياء فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع حتى رُوى عن عمر أنه رأى شابًا يمشى رويداً فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشى بقوة وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ : «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وائتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا»، وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الآية .قال: إن المؤمنين قوم ذلل ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض وإنهم - والله - لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ولكن أبكاهم الخوف من النار إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أى إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية.[القصص: ٥٥].

وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبى خالد الوالبى عن النعمان بن مقرن المزنى قال: قال رسول الله ﷺ وقد سب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ:«أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له: وعليك

السلام قال: لا بل عليك وأنت أحق به» إسناده حسن ولم يخرجوه. وقال مجاهد ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعنى قالوا سدادا. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفًا من القول. وقال الحسن البصرى: قالوا (سلاما) قال: حلماء لا يجهلون إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون.

هؤلاء القوم من عباد الرحمن الذين يتصفون بهذه الصفات النبيلة ويتحلون بهذه الأخلاق الكريمة ماذا يكون جزاؤهم من لدن الحكم العدل الكريم المتعال؟ بالتأكيد يكون جزاؤهم على قدر أخلاقهم وعلى قدر سلوكهم وعلى قدر ارتباط أفعالهم وسلوكهم بأخلاقهم، فمعروف أن الجزاء من جنس العمل. يقول الحق تبارك وتعالى فى الآية الخامسة والسبعين من سورة الفرقان: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ فى تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله: لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهى الجنة قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدى: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى على القيام بذلك، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أى فى الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أى يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ويلقون التوقير والاحترام فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبة الدار. ويقول القرطبى يرحمه الله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ خبر، و ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ فى قول الزجاج على ما تقدم، وهو أحسن ما قيل فيه. وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى؛ وهى إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، وقتل النفس بغير حق، والزنى، والتوبة، وتجنب الكذب، والعفو عن المسيئ، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. و﴿الْغُرْفَةَ﴾ الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا. حكاه ابن شجرة. وقال الضحاك: الغرفة الجنة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى بصبرهم على أمر ربهم: وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن على بن الحسين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر والفاقة فى الدنيا وقال الضحاك: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عن الشهوات.

الفصل الخامس

أهم الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق

من أهم الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق الكريمة فى نفوس النشء ما يلى:

١- المداومة على الوعظ والنصح والإرشاد: فإن النفس الإنسانية فى حاجة دائمة للنصح والوعظ والإرشاد وأخذ العبر والدروس المستفادة. فمن النصائح البليغة التى قدمها لنا كتاب الله المبين تلك النصيحة الغالية التى نصح بها لقمان الحكيم ابنه وهو يعظه. وهذه النصيحة جمعت من العظات الكثير والكثير كما جمعت من مكارم الأخلاق ما جعلها نصيحة شاملة جامعة للخصال النبيلة والأخلاق الكريمة فلقد وصَّى لقمان ابنه ألا يشرك بالله وأن يحسن إلى والديه وأن يشكر الله ولهما كما وصاه أن يقيم الصلاة وأن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر وأن يصبر على ما أصابه وألا يصعِّر خده للناس وألا يختال فيمشى فى الأرض مرحًا وأن يقصد فى مشيه وأن يغضض من صوته، ما أجملها وما أنفعها من مجموعة غالية من النصائح المفيدة النافعة. يقول الحق تبارك وتعالى على لسان لقمان عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٣ - ١٩]

حول معانى هذه الآيات البينات يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده وهو لقمان بن عنقاء بن سدون واسم ابنه ثاران فى قول حكاه السهيلى، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر وأنه آتاه الحكمة وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أى هو أعظم الظلم، قال البخارى: حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله: «إنه ليس بذلك ألا تسمع لقول لقمان: يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» ورواه مسلم من حديث الأعمش به ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن.

وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤] قال مجاهد: مشقة وهن الولد وقال قتادة: جهداً على جهد وقال عطاء الخراسانى: ضعفًا على ضعف وقوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] أى تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال فى الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ليذكر الولد بإحسانه المقدم إليه كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ولهذا قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] أى فإنى سأجزيك على ذلك أوفر جزاء. قال ابن أبى حاتم: حدثنا زرعة حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا عبيد الله أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبى فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنى رسول رسول الله ﷺ إليكم

أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن وخلود فلا موت.

وقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أى إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفًا أى محسنًا إليهما ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبرانى فى كتاب العشرة: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فىّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية. قال: كنت رجلاً براً بأمى فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى فيقال: يا قاتل أمه فقلت: لا تفعلى يا أمه فإنى لا أدع دينى هذا لشىء، فمكثت يومًا وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل قد اشتد جهدها فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى هذا لشىء فإن شئت فكلى وإن شئت لا تأكلى فأكلت.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أى إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل وجوز بعضهم أن يكون الضمير فى قوله: "إنها" ضمير الشأن والقصة وجوز على هذا رفع مثال والأول أولى وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أى أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط وجازى عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صماء أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السماوات والأرض فإن الله يأتى بها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات

ولا فى الأرض. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] أى لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، "خبير" بدبيب النمل فى الليل البهيم والظاهر والله أعلم أن المراد أن هذه الذرة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه. كما قال الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنًا ما كان».

ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى بحدودها وفروضها وأوقاتها. ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا بد أن يناله أذى فأمره بالصبر وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، كما جاء فى الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة والمخيلة لا يحبها الله» قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: "ولا تصعر خدك للناس" يقول: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، وكذا روى العوفى وعكرمة عنه وقال مالك عن زيد بن أسلم: "ولا تصعر خدك للناس" لا تتكلم وأنت معرض، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة ويزيد بن الأصم وأبى الجوزاء وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم، وقال إبراهيم النخعى يعنى بذلك التشدق فى الكلام. والصواب القول الأول قال ابن جرير: وأصل الصعر داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها حتى تفلت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر ومنه قول عمرو بن حى التغلبى:

وكنا إذا الجبَّار صعَّر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما

وقال أبو طالب فى شعره:

وكنا قديمًا لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها

وقوله: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، إن تفعل ذلك ببغضك الله ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى مختال معجب فى نفسه فخور أى على غيره وقال تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧]، عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور» فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ويعجبنى شراك نعلى وعلاقة سوطى فقال: «ليس ذلك الكبر إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس».

وقوله: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى امش مشيًا مقتصداً ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطًا بين بين. وقوله: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أى لا تبالغ فى الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ وقال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير أى غاية مَنْ رفع صوته أنه يشبه بالحمير فى علوه ورفعه ومع هذا هو بغيض إلى الله، وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء العائد فى هبته كالكلب يقئ ثم يعود فى قيئه» وقال النسائى عند تفسير هذه الآية عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانًا»، وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجة من طرق عن جعفر بن ربيعة به وفى بعض الألفاظ بالليل فالله أعلم. فهذه وصايا نافعة جداً وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة.

٢- ومن الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق الكريمة التربية الخلقية: ونقصد بها تربية النشء على مكارم الأخلاق وتعويدهم عليها فكما سبق وأشرنا فإن الأخلاق منها ما هو طبيعى فطرى ومنها ما هو مكتسب يأتى بالتعليم والتدريب، وإن الإنسان يولد على الفطرة ويكون كالصفحة البيضاء ثم يجىء دور الوالدين فى ملء هذه الصفحة البيضاء فإن لم يملؤها بالصالح امتلأت بالطالح، فحرى بالآباء أن

يسارعوا إلى ملء فراغ هذه الصفحة الطاهرة البيضاء من قلوب وعقول أبنائهم وبناتهم بكريم الأخلاق وطيب الخصال وطيب الفعال. فى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، حول تفسير هذه الآيات البينات يقول ابن كثير يرحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أى خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» أخرجاه من رواية أبى هريرة وفى صحيح مسلم من رواية عياض بن حماد المجاشعى عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أى فأرشدها إلى فجورها وتقواها أى بين لها وهداها إلى ما قدر لها قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بين لها الخير والشر وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثورى. وقال سعيد بن جبير ألهمها الخير والشر وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها وقال ابن جرير عن يحيى بن يعمر عن أبى الأسود قال: قال لى عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شىء قضى عليهم قال: فهل يكون ذلك ظلما؟ قال: ففزعت منه فزعًا شديداً قال: قلت له ليس شىء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل وهم يسألون قال: سددك الله إنما سألتك لأخبر عقلك أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شىء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شىء قد قضى عليهم» قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها»، وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ رواه أحمد ومسلم من حديث عزرة بن ثابت به.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أى بطاعة الله كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وكقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أى دسسها أى أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه وقد خاب من دس الله نفسه كما قال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس، وقال بن أبى حاتم: حدثنا أبى زرعة قالا: حدثنا سهل بن عثمان حدثنا أبو مالك يعنى عمرو بن الحارث عن عمرو بن هشام عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قول الله عز وجل ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ قال النبى ﷺ: «أفلحت نفس زكاها الله عز وجل»، وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها». وقال الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن. رواه مسلم من حديث أبى معاوية عن عاصم الأحول عن عبد الله بن حارث وأبى عثمان النهدى عن زيد بن أرقم به.

٣- كذلك فمن الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق الكريمة **إرشاد النشء إلى ضرورة مصاحبة الأخيار وإلى ضرورة تجنب مصاحبة الأشرار**: فالمرء كما قال رسول الله ﷺ على دين خليله. جاء فى المستدرك على الصحيحين: عن موسى بن هارون أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

كذلك قال الشاعر:

عن المرءِ لا تسألْ وسلْ عن قرينِه فكـلُّ قريـنٍ بالمُقَـارَنِ يقتدى

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، وروى عن ابن مسعود أنه قال: اعتبروا الناس بإخوانهم.

لقد نصح رسول الله ﷺ أبناء أمته أن يتخيروا جلساءهم وأن يجالسوا الجليس الصالح وأن يحذروا من الجليس السوء فإن عاقبة مجالسة أصدقاء السوء وخيمة، وأعطى رسول الله ﷺ فى تصوير بليغ مثلاً للجليس الصالح وهو حامل المسك الذى إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة كما أعطى مثلاً بليغًا للجليس السوء بنافخ الكير الذى إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة. فقد جاء فى صحيح مسلم: عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة». وذكر أبو بكر البزاز عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله أى جلسائنا خير؟ قال: «من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله». وقال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار وأنشد:

وصاحبْ خيارَ الناسِ تنجُ مسلما وصاحبْ شرارَ الناسِ يومًا فتندما

٤- كذلك فمن الوسائل التى تعين على تربية الأخلاق فى النفوس الأخذ بمبدأ **الثواب والعقاب**: وبخاصة عند تربية الصغار من النشء فالأمر يحتم ضرورة المعاقبة لمن يتجاوز أو يتهاون فى الالتزام بالتحلى بالخلق الحسن كما يستوجب الأمر مثابة من يلتزم بالتحلى بالأخلاق النبيلة. الحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه المبين: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هاتين الآيتين الكريمتين: قال البخارى

عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طيلها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنات. ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كان آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له وهى لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياء ونواء فهى على ذلك وزر» فسئل رسول الله عن الحمر فقال: ما أنزل الله شيئًا إلا هذه الآية الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ رواه مسلم من حديث زيد ابن أسلم به. وقال الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ قال: «حسبى لا أبالى أن أسمع غيرها». وفى صحيح البخارى عن عدى مرفوعًا: «اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة»، وله أيضًا فى الصحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن سرغ من دلوك فى إناء المستسقى ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»، وفى الصحيح أيضًا: «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» يعنى ظلفها وفى الحديث الآخر: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»، وقال الإمام أحمد: عن المطلب بن عبد الله عن عائشة أن رسول الله قال: «يا عائشة استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان» تفرد به أحمد. وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة. وقال الإمام أحمد: عن عوف بن الحارث بن الطفيل أن عائشة أخبرته أن النبى ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا» ورواه النسائى وابن ماجة من حديث سعيد بن مسلم بن بانك به، وعن أبى قلابة عن أنس قال: كان أبو بكر يأكل مع النبى ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله ﷺ إنى أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر ما

رأيت فى الدنيا مما تكره بمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة».

قال ابن جرير عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى حين أنزلت فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكينى هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أممًا يخطئون ويذنبون فيغفر لهم». عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ قلت: يا رسول الله إنى لراء عملى؟ قال: «نعم» قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: «نعم» قلت: الصغار الصغار؟ قال: «نعم» قلت: واثكل أمى، قال: «أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها - يعنى إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء والسيئة بمثلها أو يعفو الله ولن ينجو أحد منكم بعمله» قلت: ولا أنت يا رسول الله ﷺ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة».

٥- ومن الوسائل التى تعين على تربية الأخلاق فى النفوس أيضًا **التأسى بالأسوة الحسنة**: لقد كان لنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى التحلى بمكارم الأخلاق. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فى تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

الفصل السادس
خصائص الأخلاق الإسلامية

الأخلاق الإسلامية هى الأخلاق الحميدة التى لها من الصفات أو الخصائص ما يجعلها متفردة متميزة ومن هذه الصفات أو الخصائص أو المميزات:

(أ) شمولية الأخلاق الإسلامية:

من أهم خصائص الأخلاق الإسلامية شمولية هذه الأخلاق وصلاحيتها لكل زمان ومكان وكل البشر فى كل المجتمعات، فدين الإسلام هو الدين الخاتم الذى أنزله الله عز وجل ليكون للناس سراجًا منيراً وليكون خاتمًا لكل الديانات ولهذا فلقد اشتمل الإسلام على كل ما ينفع البشر فى كل زمان ومكان، ولم يترك ذلك الدين القيم شاردة ولا واردة من أمور البشر التى تصلح حالهم فى دنياهم وفى آخرتهم إلا وقد عالجها العلاج الناجع الكامل الوافر الشامل. الحق تبارك وتعالى ارتضى للبشر هذا الدين الخاتم فأكمله لنا وأتم علينا نعمه الظاهرة والباطنة وهو الذى ارتضى لنا هذا الدين الإسلامى الحنيف دينًا، فقال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فهذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه وكل شىء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أى صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأوامر والنواهى فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ أى فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه.

ولم يقتصر اهتمام شريعتنا الغراء والأخلاق الإسلامية السمحة بالإنسان فى كل زمان ومكان فحسب بل وتعدت الإنسان فاهتمت إضافة إلى الإنسان بالجماد والزرع والحيوان حتى أن رجلاً قد غفر له ربه فى هذه الشريعة السمحاء حينما سقى كلبًا وجده يلهث من القيظ فملأ له خفه ماء وسقاه، وأن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض: عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها فلم تدعها تصيب من خشاش الأرض ولم تطعمها ولم تسقها حتى ماتت. ورسول الله ﷺ هو الرحمة المهداة وهو النعمة المسداة أرسله الله ليكون رحمة للناس أجمعين وليس لأمة بعينها أو لشعب بعينه بل للعالمين أجمع فرسالة الإسلام هى الرسالة الشاملة التامة الكاملة المبعوثة للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم لا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وهى الرسالة الخاتمة الصالحة للبشر جميعًا فى كل زمان ومكان. والأخلاق الإسلامية التى يتخلق بها أبناء هذه الديانة السماوية الشاملة لكل البشر هى أخلاق شمولية أيضًا تصلح للفرد وللمجتمع فى كل زمان وفى كل مكان. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة الأنبياء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(ب) إقناعها للعقل والعاطفة:

من خصائص أخلاق الإسلام أيضًا أنها هى الأخلاق التى اهتمت بالعقل والقلب والعاطفة والوجدان معًا فلم تهتم بجانب وتهمل جانبًا ولم ترجِّح جانبًا على آخر فالإنسان فى شريعتنا الغراء مجموعة مركبة من العقل والعواطف فاهتمت بهذه الجوانب جميعها.

(ج) المسئولية الأخلاقية:

من خصائص هذه الأخلاق الإسلامية النبيلة أيضًا أنها تلزم معتنقيها سواء كانوا أفراداً أو جماعات بضرورة التقيد بالإطار العام للدين الإسلامى الحنيف فتقع المسئولية الأخلاقية على الفرد، كما تقع على الجماعة والمسئولية الأخلاقية هى

بالتالى حكم على الأعمال الظاهرة وعلى الأعمال الباطنة للفرد والجماعة. الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، ويقول تبارك وتعالى فى سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]. وحول معنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية. لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما فى الدنيا وهو الأجود له وإما فى الآخرة والعياذ بالله من ذلك ونسأله العافية فى الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة شرع فى بيان إحسانه وكرمه ورحمته فى قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير وهو النقرة التى فى ظهر نواة التمرة.

(د) المسئولية الأخلاقية عن الأفعال والنوايا:

كما تقع المسئولية الأخلاقية على الأفعال التى يأتى بها الإنسان فإنها أيضًا تقع على النوايا الكامنة فى وجدانه يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]، عن هشام بن عروة عن أبيه أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة فنهشته حية فى الطريق فنزلت فيه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن إبراهيم التيمى عن علقمة بن أبى وقاص الليثى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وهذا عام فى الهجرة وفى جميع الأعمال ومنه الحديث الثابت فى الصحيحين فى الرجل الذى قتل تسعة

وتسعين نفسًا ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالمًا هل له من توبة فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت فى أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائبًا وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها فأمر الله هذه أن تقترب من هذه وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة وفى رواية أنه لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التى هاجر إليها.

(هـ) الرقيب هو الله تعالى:

من خصائص هذه الأخلاق الإسلامية النبيلة أن الحق سبحانه وتعالى هو الرقيب على ما يقدم الإنسان وما يؤخر وهو سبحانه وتعالى الرقيب على ما يبدى الإنسان وما يبطن وهو سبحانه وتعالى الرقيب على أفعال المرء وعلى نواياه. يقول الحق تبارك وتعالى فى أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، وحول معنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير: يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه وهى عبادته وحده لا شريك له ومنبهًا لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة وهى آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهى حواء عليها السلام، وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ أى وذرأ منهما أى من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ أى واتقوا الله بطاعتكم إياه. وقال الضحاك: واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والضحاك والربيع وغير واحد.. وقرأ بعضهم "والأرحام" بالخفض على العطف على الضمير فى به أى

تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦، البروج: ٩]. وفى الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب.

(و) الإنسان جسد وروح:

أخلاق الإسلام الكريمة السمحة لم تهتم بالجانب الروحى العقدى فقط على حساب الجانب الجسدى كما أنها لم تهتم بالجانب الجسدى للإنسان أكثر من اهتمامها بالجانب الروحى ولكنها عاملت الإنسان على أنه خليط مركب متعادل من الجانبين الروحى والجسدى، فأوصت الإنسان أن يهتم بحاجاته الجسدية وألا ينسى نصيبه من الإشباعات الروحية والعكس بالعكس؛ فلقد أوصت أن يهتم بالجانب الروحى ولا يهمل متطلباته الجسدية المشروعة وكانت بهذا أخلاقًا وسطية سمحة.

(ز) الصلاحية لكل الأزمنة وكل الأمكنة وكل الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم:

اختار الله سبحانه وتعالى دين الإسلام ليكون الدين الخاتم للبشر ليكمل الديانات السماوية السابقة واختار نبيه محمداً ﷺ ليكون خاتمًا للأنبياء والمرسلين ولهذا كان دين الإسلام الدين الأكمل والأشمل والأصلح لكل البشر على اختلاف ألوانهم ومواطنهم وفى كل زمان ومكان. بهذا تصبح أخلاق الإسلام هى الأخلاق الأكمل والأشمل والتى تسعد الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، ويقول تبارك وتعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(ح) العقاب والثواب فى كل من الداربن الدنيا والآخرة:

إن الله ببالغ عدله وواسع علمه واطلاعه يرسل الرسل لهداية البشر فمن اهتدى بهداهم واستن سنتهم وسار على طريق النور الذى أُرسلوا به وعمل عملاً صالحًا كان ثوابه كبيراً فى الدنيا وفى الآخرة ومن يعمل سوءاً كان عقابه وخيمًا فى الدنيا أيضًا وفى الآخرة، هكذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا وفى الآخرة. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النساء: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيراً﴾ [النساء: ١٣٤]، ويقول تعالى فى سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦] بهذا يتحقق الجزاء العادل فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

• • •
• • •

obeikandl.com

الفصل السابع

ارتباط الأخلاق الإسلامية بالعقيدة وبالعبادات

إن التمسك بالأخلاق الحميدة النبيلة والتحلّى بها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمدى تمسك المرء بعقيدته فإن صحت عقيدة المرء صحت أخلاقه والعكس صحيح فإذا ضعف إيمان المرء أو ضعفت عقيدته ضعف إيمانه وانحدرت أخلاقه وسلوكه فهما - الأخلاق القويمة والعقيدة القوية الثابتة المتينة - صنوان يسيران متوازيين فى خطين مستقيمين إذا صلح أحدهما صلح الآخر وإذا فسد أحدهما فسد بالضرورة الآخر.

والأخلاق الإسلامية النبيلة كما ترتبط بالعقيدة فإنها أيضًا ترتبط بالعبادات ارتباطًا وثيقًا فمن المعقول ومن الطبيعى أن يحافظ صاحب الأخلاق الحميدة على أداء فروض عبادته كما أمره رب العزة وأن ينتهى بنواهيها كما نهاه عنها الشرع الإسلامى، ومن غير المعقول أن يكون لدى غير الملتزم أخلاقيًا أى ولاء لدينه أو لوطنه أو حتى لقومه الذى يعيش بينهم، فمن أين يتأتى له أن يكون وفيًا وهو لا يعرف معنى الوفاء ولا يتحلّى بخلق الوفاء؟ وكيف يكون نبيلاً وهو لم يجرب أن يكون نبيلاً مرة واحدة طول حياته؟ وكيف يكون حليمًا وهو لا يعرف للحلم معنى ولا طريقًا؟ وكيف يكون أمينًا وهو أصلاً لا يعرف ماذا تعنى الأمانة؟ إن هذا الغير ملتزم أخلاقيًا هو بالضرورة غير ملتزم عقديًا وهو غير ملتزم فى أداء واجبات العبادة لله عز وجل. إن هذا وأمثاله هم والعياذ بالله الذين ضلوا وأضلوا فاللهم اهدهم بهداك إلى صراطك المستقيم.

أولئك القوم المنافقون المراؤون وهم ضعيفو الإيمان لأنهم ضعيفو الأخلاق والسلوك، وأولئك هم من الذين ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله فى تفسير

هذه الآيات البينات من سورة الماعون: قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعنى المنافقين الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر ولهذا قال «للمصلين» الذى هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون إما عن فعلها بالكلية كما قال ابن عباس وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعًا فيخرجها عن وقتها بالكلية كما قاله مسروق وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذى قال: "عن صلاتهم ساهون" ولم يقل "فى صلاتهم ساهون". وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملى كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» فهذا أخر صلاة العصر التى هى الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضًا ولهذا قال: "لا يذكر الله فيها إلا قليلا" ولعله إنما حمله على القيام إليها مراآة الناس لا ابتغاء وجه الله فهو كما إذا لم يصل بالكلية. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وسلوك المسلم مرآة لعمق إيمانه فعلى قدر صدق المرء مثلاً وعلى قدر سلوكه وأخلاقه يُقاس مدى إيمانه فبالصدق استطاع أسلافنا الكرام أن يغزوا مشارق الأرض ومغاربها، فدخل الناس فى دين الله أفواجًا فدخل العديد من سكان دول شرق وجنوب شرق آسيا وشمال وغرب ووسط أفريقيا الإسلام بسلوك أجدادنا الذين تحلوا بالصدق فكان التجار منهم يتعاملون مع أهالى تلك البلاد بالكلمة الصادقة، مما دفع أهالى تلك البلاد أن تتساءل عن كنه هذا الدين الإسلامى الحنيف الذى خرَّج من مدارسه هؤلاء القوم الصادقين فدخلوا فى دين الله دون أن تذهب إليهم الجيوش

الجرارة، هكذا يخبرنا التاريخ. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] ، ويقول العلامة ابن كثير يرحمه الله فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبرى من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: يقول يوم ينفع الموحدين توحيدهم، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون، ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وروى ابن أبى حاتم ههنا حديثًا عن أنس فقال: عن أنس مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول: سلونى سلونى أعطكم قال: فيسألونه الرضا فيقول رضاى أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا قال فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى»، وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى هذا الفوز الكبير الذى لا أعظم منه كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

والحق تبارك وتعالى حينما يأمر المسلمين أن يكونوا عادلين فإنما هو سبحانه يأمرهم بذلك حتى تستقيم أمور حياتهم فبالعدل يسعد البشر ويشعرون بالأمان وتستقيم أمور الأوطان فالظلم ظلمات وضلال مبين والعدل نورٌ وصلاح ويقين، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، مجموعة من الأوامر بالتحلى بمكارم الأخلاق ومنها العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى فما أجملها من أخلاق إسلامية كريمة وما أنبلها من صفات إسلامية رفيعة وكذلك ينهى سبحانه بمجموعة من النواهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يقول ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة: يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة

ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وقال سفيان بن عيينة: العدل فى هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته؛ وقوله: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى يأمر بصلة الأرحام كما قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ولهذا قيل فى الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأما البغى فهو العدوان على الناس وقد جاء فى الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقال الشعبى عن بشير بن نهيك سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية. رواه ابن جرير وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية. ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها، ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها». وقال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة عن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه فانتدب رجلين فأتيا النبى ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت

وما أنت؟ فقال النبى ﷺ: «أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية. قالوا: ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطًا فى مضر - أى شريفًا - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا.

• • •

• • •

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

حماية الأخلاق الإسلامية

كان من فضل الله على أمة الإسلام أن شرع الحدود لحماية الدين ولحماية الأخلاق ولحماية النفس والعرض والمال والعقل. والحق تبارك وتعالى قد وضع دستوره الإلهى العظيم لحماية الأخلاق الإسلامية الكريمة من خلال مجموعة هائلة من الأوامر لجماعة المسلمين وكذلك من خلال مجموعة أخرى من النواهى. فالأوامر الإلهية لعباده المؤمنين بإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، كل هذه الأوامر إنما وُضعت لعبادة الله وحده وللخشوع والخضوع لإرادته وللحفاظ أيضًا على الأخلاق. لقد شرع الشارع الأعظم من الشرائع ما تُحمى به الأخلاق ومنها:

(١) عقوبة السرقة: فى عقوبة السرقة التى حددها الشارع الأعظم حماية للأخلاق فلحماية المجتمع من جرائم السرقة شرع الإسلام عقوبة رادعة للسارق والسارقة ولم يستثن من تلك العقوبة شريفًا أو ثريًا قويًا أو ضعيفًا، وكان لنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حينما أقسم لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] ويقول العلامة ابن كثير يرحمه الله تفسيراً لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى حاكمًا وآمراً بقطع يد السارق والسارقة وروى الثورى أن ابن مسعود كان يقرؤها "والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما" وهذه قراءة شاذة وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقًا لها لا بها بل هو مستفاد من دليل آخر وقد كان القطع معمولاً به فى الجاهلية فقرر فى الإسلام وزيدت شروط أخر كما سنذكر إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه

وزيادات هى من تمام المصالح ويقال: إن أول من قطع الأيدى فى الجاهلية قريش قطعوا رجلاً يقال له: دويك مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة ويقال: سرقه قوم فوضعوه عنده وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئًا قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصابًا ولا حرزاً بل أخذوا بمجرد السرقة وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفى قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاص أم عام؟ فقال: بل عام وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ويحتمل غير ذلك فالله أعلم، وتمسكوا بما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده»، وأما الجمهور فاعتبروا النصاب فى السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة - فمتى سرقها - أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع واحتج فى ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع فى مجن ثمنه ثلاثة دراهم أخرجاه فى الصحيحين قال مالك رحمه الله: وقطع عثمان رضي الله عنه فى أترجة قومت بثلاثة دراهم وهو أحب ما سمعت فى ذلك وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك عن عبد الله بن أبى بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقًا سرق فى زمن عثمان أترجة فأمر بها عثمان أن تقوَّم فقومت بثلاثة دراهم - صرف اثنى عشر درهمًا - فقطع عثمان يده.

قال الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها» فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار فقال: «اقطعوا يدها» فقطعت يدها اليمنى فقالت المرأة: هل لى من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك» فأنزل

الله فى سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩] ، وهناك المرأة المخزومية التى سرقت وحديثها ثابت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عروة عن عائشة أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل؟ فقال له أسامة: استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإنى والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ، هذا لفظ مسلم. سبحان الله العلى العظيم الذى أرسل فينا هذا النبى الأمى ليعلمنا أمور ديننا وليهدينا إلى صراط الله المستقيم وليضع لنا الأسس والمبادئ التى إذا استمسكنا بها لن نضل بعده أبداً وذلك فى كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

(٢) عقوبة الزنا حماية لخلق العفة: شرع الحق تبارك وتعالى عقوبة مشددة للزانى والزانية حماية للعفة حيث يقول تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وفى تفسيره لهذه الآية المباركة يقول ابن كثير يرحمه الله يقول تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ يعنى هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد وللعلماء فيه تفصيل ، نزاع فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذى لم يتزوج أو محصنًا وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما فى الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عامًا عن بلده عند جمهور العلماء خلافًا لأبى حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأى الإمام إن شاء

غرب وإن شاء لم يغرب وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابنى هذا كان عسيفًا - يعنى أجيراً - على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى: الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام. واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا إليها فاعترفت فرجمها. وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج فأما إذا كان محصنًا وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم كما قال الإمام مالك: حدثنى ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف. أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك مطولا. وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعى رحمهم الله وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب: "أنه لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهى محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال: جلدتها لكتاب الله ورجمتها

بسنة رسول الله ﷺ وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أى لا ترأفوا بهما فى شرع الله، وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل وكذا روى عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح وقد جاء فى الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب» وفى الحديث الآخر: «لحد يقام فى الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا» وقيل المراد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغى من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: رحمة فى شدة الضرب وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح وقال سعيد بن أبى عروبة عن حماد ابن أبى سليمان: يجلد القاذف وعليه ثيابه والزانى تخلع ثيابه ثم تلا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقلت: هذا فى الحكم قال: هذا فى الحكم والجلد يعنى فى إقامة الحد وفى شدة الضرب وقال ابن حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمرو عن ابن أبى مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها قال نافع: أراه قال ظهرها قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: يا بنى ورأيتنى أخذتنى بها رأفة إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها فى رأسها وقد أوجعت حين ضربتها. وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحًا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها فقال: «ولك فى ذلك أجر»، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيَيْن إذا جلدا بحضرة الناس فإن ذلك يكون أبلغ فى

زجرهما وأنجع فى ردعهما فإن فى ذلك تقريعًا وتوبيخًا إذا كان الناس حضورا. قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى علانية ثم قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد وقال عطاء بن أبى رباح: اثنان وبه قال إسحاق بن راهوية وكذا قال سعيد بن جبير «طائفة من المؤمنين» قال: يعنى رجل فصاعداً وقال الزهرى: ثلاث نفر فصاعداً وقال عبد الرزاق: حدثنى ابن وهب عن الإمام مالك فى قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً وبه قال الشافعى وقال ربيعة: خمسة وقال الحسن البصرى: عشرة وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا بقية قال: سمعت نصر ابن علقمة يقول فى قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

(٣) حمايةً وصيانةً لخلق العدل شرع الحق تبارك وتعالى عقوبة القصاص،

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩]، وتفسيراً لهاتين الآيتين يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول الله تعالى كتب عليكم العدل فى القصاص أيها المؤمنون حُركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم فكان إذا قتل النضرى القرظى لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر وإذا قتل القرظى النضرى قتل وإن

فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرظى فأمر الله بالعدل فى القصاص ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغيًا فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية فى العمد وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعنى فمن ترك له من أخيه شىء يعنى أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو "فاتباع بالمعروف" يقول: فعلى الطالب اتباع المعروف إذا قبل الدية، "وأداء إليه بإحسان" يعنى من القاتل من غير ضرر ولا معك يعنى المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدى المطلوب بإحسان وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو. وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد وهكذا روى ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع ابن أنس والسدى ومقاتل بن حيان أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد ابن إسحاق عن الحارث بن فضيل عن سفيان بن أبى العوجاء عن أبى شريح الخزاعى أن النبى ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص وإما أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدًا فيها» رواه أحمد وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافى رجلاً قتل بعد أخذ الدية» يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول تعالى: وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس وفى الكتب المتقدمة: القتل أنفى

للقتل فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والنهى لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

(٤) عقوبة قطع الطريق وترويع الآمنين: حماية للأمن ونشراً له بين الناس شرع الدين الحنيف عقوبة قطع الطريق المعروفة بحد الحرابة، فى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله تفسيراً لهذه الآية الكريمة: وقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة هى المعاداة والمخالفة وهى صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد فى الأرض وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين كما قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسن بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصرى قالا: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - إلى - فاعلموا أن الله غفور رحيم" نزلت هذه الآية فى المشركين فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصابه. رواه البخارى ومسلم من حديث أبى قلابة عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية

قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: «ألا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها» فقالوا: بلى فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا فقتلوا الراعى وطردوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث فى آثارهم فأدركوا فجىء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم ثم نبذوا فى الشمس حتى ماتوا.

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة عن أنس بن مالك منها ما رواه من طريقين عن سلام بن أبى الصهباء عن ثابت عن أنس بن مالك قال: سألنى عنه الحجاج قال: أخبرنى عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ قال: قلت: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من البحرين فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم وقد اصفرت ألوانهم وضمرت بطونهم فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخمصت بطونهم عمدوا إلى الراعى فقتلوه واستاقوا الإبل فأرسل رسول الله ﷺ فى آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم ألقاهم فى الرمضاء حتى ماتوا فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدى قوم وأرجلهم ثم ألقاهم فى الرمضاء حتى ماتوا بحال ذود من الإبل فكان الحجاج يحتج بهذا الحديث على الناس. ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. وقال أبو جعفر ابن جرير حدثنا أبو على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا يزيد بن لهيعة عن أبن أبى حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت فى أوائل النفر العرنيين وهم من بجيلة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية: من شهر السلاح فى فئة الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه وإن شاء قطع يده ورجله كذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصرى وإبراهيم النخعى والضحاك وروى ذلك كله ابن جعفر ابن جرير

وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله. وقال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعى: أنبأنا إبراهيم بن أبى يحيى عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس فى قطاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا وإذا قَتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يُصلبوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض وقد رواه ابن أبى شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن عطية عن ابن عباس بنحوه.

(٥) شرع الشارع الحكيم تحريم الخمر حمايةً للعقل: كان من لطف الله بنا أن شرع تحريم الخمر حماية للعقل من التلف وحفظًا للمجتمع من شرورها فهى أم الكبائر أو هى أم الخبائث كلها والقرآن الكريم به أكثر من آية تحذرنا معشر المسلمين من مغبة شرب الخمر وتبين لنا آثارها المدمرة على الفرد وعلى المجتمع. كذلك فإن السنة النبوية المطهرة لم تترك مثل هذا الموضوع المهم بل تناولته بكثير من التفصيل والبيان. فى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وحول تفسير هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب. "ذكر الأحاديث الواردة فى بيان تحريم الخمر" قال الإمام أحمد عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة قال: حُرِّمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] إلى آخر الآية فقال الناس: ما حرما علينا إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يومًا من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمام الصحابة فى المغرب فخلط فى قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان الناس يشربون حتى

يأتى أحدهم الصلاة وهو مغبق ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، قالوا: انتهينا ربنا وقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا فى سبيل الله وماتوا على فرسهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] إلى آخر الآية فقال النبى ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم» انفرد به أحمد وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبى اسحاق عن أبى ميسرة عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال اللهم بين لنا فى الأمر بيانًا شافيًا نزلت الآية التى فى سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قال حى على الصلاة نادى: لا يقربن الصلاة سكران فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التى فى سورة المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر انتهينا، وقد ثبت فى الصحيحين عن عمر ابن الخطاب أنه قال فى خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل. وفى رواية حماد بن زى عن ثابت عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر فإذا مناد ينادى قال: اخرج فانظر فإذا مناد ينادى ألا إن الخمر قد حرمت فجرت فى سكك المدينة قال: فقال لى أبو طلحة اخرج فأهرقها فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم قل فلان وفلان وهى فى بطونهم قال فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. حديث آخر: "قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز عن أبى طعمة مولاهم وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه لعنت

الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها». حديث آخر: قال الشافعى رحمه الله أنبأنا مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حرمها فى الآخرة» أخرجه البخارى ومسلم من حديث مالك به وروى مسلم عن أبى الربيع عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يسر بها فى الآخرة». وقال الزهرى: حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت: إنى والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع علىَّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأسًا فقال: زيدونى فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقى وهذا إسناد صحيح وله شاهد فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

• • •

• • •